مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: النهـــــار
التاريخ: ١٩٧١/٥/٢٩

المعاهدة عشية الذكرى الخامسة (١)

الذي تفضله موسكو والذي يفضّله السادات

القاهرة ــ من فؤاد مطر :

في المبدء كانت زيارة الرئيس نيكولاي بودغورني للقاهرة غير رسمية . وفي الزيارات غير الرسمية ــ هكذا درج التقليد ــ لا تجري محادثات بالمعنى المألوف . ولا يتبادل الضيف الخطب مع المضيف . ولا يصدر بيان مشترك .

لمجرد وصول بودغورني الى القاهرة وبعد لقاءين مع الرئيس انور السادات وجها لوجه تحولت الزيارة الى اكثر من رسمية . تبودلت الخطب بحرارة ، ولم يصدر بيان مشترك فحسب ، بل وقعت معاهدة .

ومثل هذا الامر لم يحدث في ولاية الرئيس جمال عبد الناصر . قد تكون حدثت اتفاقات في منتهى الاهمية وبالذات على الصعيد العسكري من دون ان يعلن عنها ، الا ان وضع معاهدة أمر لم يحدث .

ما الذي جرى ؟

قبل الخوض في التفاصيل والاستنتاجات لا بد من القاء نظرة الى الوراء .

عندما تقررت اقامة احتفالات انتهاء العمل في سد اسوان شدد السادات كثيرا على ان يأتي السيد ليونيد بريجنيف الامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي للمشاركة في الاحتفال . وليس واضحا الى الان سر الحاح السادات ، الا انه كان بالفعل الحاحا من نوع متميز . ويومها لم يأت بريجنيف لان الرئيس السوداني جعفر النميري كان بدأ عملية ضرب الشيوعيين ووضعهم في السجون . وكان بريجنيف يريد من عدم المجيء الى القاهرة تسجيل

موقف برغم ان الشيوعيين الذين يضربون هم الشيوعيون في السودان وان الذي يضربهم هو جعفر النميري وليس انور السادات .

تبين بعد ذلك ان السادات كان يريد مجيء بريجنيف الى مصر لاكثر من سبب معظمها غير معلوم الا انها في النهاية تلتقي حول نقطة اساسية وهي : مستقبل العلاقات بين البلدين بعد رحيل عبد الناصر .

فالذي جاء للاشتراك في تشييع جثمان عبد الناصر كان السيد اليكسي كوسيغين رئيس الحكومة السوفياتية. وكان النظام المصري يرى دائما في كوسيغين ليونة مقابل تشدد عند بريجنيف . كوسيغين يعطي الاهتمامات الداخلية في الاتحاد السوفياتي افضلية على اي شيء اخر . وبريجنيف يعطي موضوع الوقوف مع الدول المتعاونة مع الاتحاد السوفياتي بشكل او اخر تلك الافضلية.

ولما كان بريجنيف لم يات لتشييع جثمان عبد الناصر وارسل بدلا منه كوسيغين ، ولما كان بريجنيف لم يات برغم الحاح السادات للمشاركة في احتفال الانتهاء من العمل في سد اسوان ، لما كان الرجل الاول في الاتحاد السوفياتي لم يفعل ذلك فان السادات توجه بنفسه الى موسكو . قام بتلك الزيارة السرية التي استغرقت اربعا وعشرين ساعة في الاول من آذار الماضي والثاني منه .

نعود الى الاجابة عن السؤال الكبير : ما الذي جعل الزيارة الرسمية تتحول الى اخطر من ذلك بكثير ؟ ما الذي جعلها تنتهي الى معاهدة صداقة وتعاون تشمل كل الميادين ومدتها ١٥ سنة .

يبدو ان بودغورني اطمأن الى ان وضع السادات سليم وهي النقطة الاساسية في رحلة الاستقصاء السوفياتية .

استطرادا يبدو أن بودغورني يريد اكثر من الاطمئنان اذا ما لمس هذا الاطمئنان . فقد تبدلت الظروف كثيرا. وفي الماضي كانت موسكو مطمئنة الى ان علاقتها بمصر عبد الناصر لا يمكن ان تنتهي بسهولة ، اما وقد تسلم القيادة في مصر انور السادات فان العلاقة يجب ان تبنى على اسس من نوع جديد، خاصة ان السادات لم يكن يطلع بما فيه الكفاية على طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين عبد الناصر وقادة الكرملين .

وحتى في الايام الاخيرة لم يكن مطلعا بما فيه الكفاية ، وللتدليل على ذلك تبدو قصة الخزنة التي اشار اليها السادات في خطابه الاخير امام مجلس الامة مثلا معقولا يضرب به . لقد اشار السادات الى ان عبد الناصر كان عندما يسافر خارج مصر يعطي مفتاح خزنته السرية لزوجته ويبقي المفتاح الآخر مع سكرتيره الخاص السيد محمد احمد الذي اصبح بعد وفاة عبد الناصر وزير في عهد السادات واحتل منصب وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية في الحكومة التي تالفت بعد ضرب مراكز القوة ، وهو المنصب الذي كان يشغله المركز الاكثر قوة بين هذه المراكز اي السيد سامي شرف .

وما دام السادات هو نائب رئيس الجمهورية فان المفتاح يجب ان يوضع في عهدته ، فهو حاكم البلد في غياب الحاكم الاصلي . ولان هذا الشيء لم يكن يحدث ، اي انه حتى المفتاح لم يكن يترك معه ، فمعنى ذلك ان الرجل كان بعيدا عن امور كثيرة .

اذا ، كان السادات غير ملم بكل الامور او ببعضها ، ومن اجل ذلك يريد ان يبني علاقته مع الاتحاد السوفياتي على اسس جديدة . الان هو سيد النظام . الان هو حاكم مصر. الان كل المفاتيح في يده . الان يريد ان يفهم المصريين والعالم كله ان عهدا

جديدا من العلاقات بدا مع الاتحاد السوفياتي ، مع تمسكه بكل شيء جرى في السابق . بكل اتفاق علني او سري وقع . بكل صيغة تفاهم تعاملت بها موسكو مع عبد الناصر . الان يريد ان يقول انه مسؤول عن كل خطوة يخطوها مع السوفيات لا ان تكون الخطوة امتدادا للخطوات السابقة .

هنا يجب الا يغيب عن البال ان كل الاجراءات التنظيمية التي تمت بعدما ضرب السادات مراكز القوة من اعادة تاليف الحكومة الى اعادة تعيين السيد حسين الشافعي نائبا له الى اعادة النظر في اشياء كثيرة ورجال كثيرين ، وهي اعادة نظر لم تتم فصولا بعد — ان كل هذه الاجراءات استهدف منها التوضيح ان ما تم بعد رحيل عبد الناصر كان مجرد تسويات واتفاقات ووعود ، وما تم بعد ضرب مراكز القوة هو الخط الثابت المسؤول عنه ، وهو الذي ارتضاه وليس احد غيره.

لقد وقف السادات بعد نحو سبعة اشهر من ولايته التي بدات يوم ١٧ تشرين الاول الماضي على حقائق العلاقات التي تربط مصر بالاتحاد السوفياتي ، ولذا فعليه ان يبدا عهدا جديدا من العلاقات . فهو كان يلم بمعلومات لكنه بعد ذلك اصبح يعرف الحقائق . كان يعرف الاطار العام لما يتقرر ويتخذ ، لكنه بعد ذلك اصبح داخل الاطار . كان يسمع . الان هو يقرر . كان نائب الشريك واصبح الشريك الاساسي .

فوق ذلك يريد السادات من موسكو تشددا اكثر قد يفيد في حل الازمة خاصة انه باق على حلول الذكرى الخامسة لحرب حزيران ٨ ايام . وحلول الذكرى من دون ان يحدث اي تغيير ملموس في الموقف من شانه ان يولد مشاعر من نوع مدمر .

ولقد وضعت المعاهدة قبل عشرة ايام من حلول الذكرى الخامسة ، وقبل ان ترد واشنطن على المقترحات التي عرضها السادات في خطابه الاخير . وبصرف النظر عما اذا كانت واشنطن سترد سلبا او انها الى الان لا تزال تدرس المقترحات ، فان توقيع المعاهدة اجهض موجة الضجيج التي احاطت بزيارة روجرز لمصر ، واجهض بالتالي كل الآمال المعلقة عليها علما بان المعاهدة لا تعني اغلاق الباب في وجه ايجاد تسوية لازمة الشرق الاوسط ، الا اذا ارتات واشنطن ان ترد على هذه المعاهدة بمعاهدة مع اسرائيل تحقق لاسرائيل امتيازات اكثر ، وبذلك يصبح امكان استئناف الحوار المصري — الاميركي مستبعدا .

ان وضع العلاقات المصرية — السوفياتية وصل في الايام الاخيرة الى ما قد يجعله مع الوقت زئبقيا . ومن شان المعاهدة ان تضمن استمرار التعامل مدة طويلة .

ومن الطبيعي ان السوفيات كانوا يفضلون ان تكون المعاهدة لمدة ١٥ سنة ، هكذا بالتحديد، الا ان السادات سعيا منه وراء اعطاء طابع استقلالي شاء ان يتم تجديد المعاهدة كل ٥ سنوات . فهو بذلك يفهم المصريين وبالذات القلقين منهم على مستقبل التعاون المصري — السوفياتي انه غير مقيد طويلا ويستطيع فك الارتباط بعد ٥ سنوات . وهنا لا بد من الاشارة الى ان ديون مصر للاتحاد السوفياتي لن يتم تسديدها اذا تمت عملية التسديد بشكل منظم قبل خمس عشرة سنة على الاقل .

من الطبيعي ايضا ان السوفيات كانوا يفضلون ان تغفل المعاهدة العبارة المتعلقة بعدم تدخل كل من البلدين في شؤون البلد الاخر لان المعاهدة شيء والحلف شيء اخر ، وان

ما يمكن حدوثه في تشيكوسلوفاكيا لا يمكن باي حال توقع حدوثه في مصر . ومن الطبيعي الافتراض ان السادات تمسك بهذه العبارة ليطمئن المصريين اولا والعرب ثانيا ومن يهمه الامر من اصدقاء مصر الذين يقدرون ، الى حد ما ، ظروف تعاملها مع الاتحاد السوفياتي . وهذه النقطة بالذات يمكن اعتبارها تسليما من موسكو بان ما يهمها في مصر هو النظام وليس الرجال ، والرجال هم الذين اعتبروا يخصون الكرملين وانتهوا في السجن .

ومن الطبيعي الافتراض ان مزيدا من الخبراء السوفيات سيصل الى مصر وربما المزيد من الاسلحة المجديدة المتطورة . وفي المعاهدة مادة صريحة تنص على « متابعة تطوير التعاون في المجال العسكري على اساس الاتفاقات القائمة بين الطرفين . ويشمل التعاون منح مساعدة لتدريب عسكريين مصريين على استخدام الاسلحة والمعدات التي سلمت الى مصر من اجل تقويتها على تصفية آثار العدوان » .

وفي هذه المادة وضوح كاف الى توقع وصول المزيد من الخبراء والسلاح، خاصه اذا اخذنا في الاعتبار ايضا ان البيان المشترك تضمن فقرة كانت لا ترد عادة في البيانات المشتركة السابقة وهي « عزم البلدين على ازالة آثار العدوان في اسرع وقت ممكن » وكانت عبارة « اسرع وقت ممكن » لا ترد في البيانات السابقة ، او على الاقل لا ترد بهذا الوضوح .

في هذه المادة ايضا وضوح كاف في الاشارة الى ان السادات سيحترم الاتفاقات القائمة وهو الامر الذي تقلق — وربما قلقت كثيرا بعد رحيل عبد الناصر — من اجله موسكو .

ان من شان المعاهدة في اي حال ان تحرك ازمة الشرق الاوسط التي تبرد يوما بعد يوم الى حد التجمد . من شانها ان تبعث الدفء في هذه الازمة فتتحرك واشنطن قليلا كي لا تتزايد درجة السخونة الى حد الانفجار خاصة ان شهر ايلول هو في حسابات كثيرة ربما كان بداية تحول نحو انفجار كبير ، او صغير يصبح كبيرا .

هل من شان المعاهدة ان تؤثر على ميثاق بنغازي ؟

ذلك سؤال اساسي .